فكاهات

رواية

السرّ المرصود

في كل مملكةٍ من الممالك الاوربية طائفةٌ من الشُرَط قد اشتهرت بما تبديهِ من المهارة والحذق في تأدية وظائفها واكتشاف خفيات الامور وفيها ايضاً طائفة اخرى من الشِحنة السرية توكل اليها المهمات التي تعجز الشُرَط عن ادراكها وهذه الطائفة الاخيرة قد لاتكون على نفقة الحكومة بل هي شركاتٌ قائمة بنفسها تكلفها الناس اغراضها وتدفع لها الاجور التي يقع الاتفاق عليها

وكان في مدينة لندن رجلٌ من دهاة الشُرَط يدعى جيمس قد اشتهر بقوّة ذكآئهِ ونوادرهِ العجيبة في كشف الخفايا وكان لهذا الرجل ابنةٌ وحيدة تدعى هنريت لها من العمر عشر سنوات وهي مع صغر سنها آيةٌ في الذكآء وتوقد الخاطر وقد زينها المولى باجمل صورةٍ واحسن قدّ . وكان لاحد سراة الانكليز من أُسرة ملبروك فتىً في الثالثة عشرة من العمر يدعى هنري ولا يقلّ عن هنريت كثيراً في الجمال وحسن الشمائل فبصر بها يوماً وكانت مع والدتها في احدى حدائق النزهة فأُعجب بجمالها وكأن جاذباً

(١) معربة عن الانكليزية بقلم نسيب افندي المشعلاني

جذبهُ فدنا وحيّا بلطفٍ ثم سار مع الفتاة ووالدتها في الحديقة وهم يتحادثون ولم يطل الوقت كثيراً حتى اخذت منهُ عوامل الحب وافتتن بحسن الفتاة ورقة اخلاقها . ولما افترقا وذهب كلٌّ الى منزلهِ شعر هنريه بشيءٍ في فؤادهِ لم يشعر بهِ من قبل فلم يذق طعاماً ولم يزر جفنهُ كرًى وما صدّق ان جآء ميعاد الامس فتوجه الى الحديقة وكلهُ عيون فرأى فاتنة لبهِ على مقعدٍ فجلس بجانبها وجعل كلٌّ منهما ينظر الى الآخر باعينٍ تغطيها الجفون المتكسرة وانفاسهما تتصعد ووجناتهما تتقد . ولم يتمكن هنري من كتمان ما في صدرهِ فانطقهُ الوجد وباح للفتاة بحبهِ ورأى منها موافقةً على ذلك فتكلما كلاماً مقدساً وافترقا بعد ان تواعدا واشهدا السمآء على الاقسام التي نطقا بها

واخذ الحب يتمكن من فؤاد هنريه وينمو مع الايام ولما اشتدّ بهِ الهيام ولم يعد في طاقتهِ الصبر على الكتمان كاشف والدهُ بما خامرهُ من حب الفتاة فوبخهُ الوالد اولاً لانهماكهِ بالحب على صغر سنهِ وثانياً لتعلقهِ بابنةٍ هي دونهُ مقاماً وبين درجات الأُسرتين بونٌ شاسع . فقال هنري اما صغر السن فليس مما يمنع الحب اذ لا فرق فيهِ بين الكبير والصغير واما امر النسب فانني لا ادرك هذه الاوهام المتسلطة على عقول كبرآئنا واذا كان الرجل فقيراً فهل يخرج عن كونهِ من النوع الانساني وهل يعتبر الرجل حيواناً بريًّا ان لم يكن معهُ تاج الكنت او لقب اللرد . اما انا فانني ارى في مالكة فؤادي ملَكاً سماويًّا ولا ابيع قلامةً من ظفرها بكل ما تملكهُ لردات انكلترا وشرفآؤها . فزجر الوالد ابنهُ بشراسةٍ واوسعهُ شتماً

ثم قال لهُ انني امهلك يا هنري الى مسآء الغد فاما ان تأتي اليَّ وقد نزعت هذه الترّهات من مخيّلتك او تستعد لان تُطرَد من بيتي هذا كالولد العقوق مصحوباً بلعنتي الابدية

فخرج هنريه من حضرة والدهِ حزين النفس دامع الطرف فخلا بنفسهِ في غرفتهِ وجعل يفكر في ما عساهُ ان يفعل وهل في امكانهِ طرد هذه الاوهام العجائزية من رؤوس الاشراف . ومرّت بهِ الساعات مرَّ الدقائق فلم يشعر الا وقد اقترب موعد مواجهتهِ لابيهِ في اليوم الثاني فدخل عليهِ فاذا هو مقطب الحاجبين فترامى على قدميهِ وبكى واسترحم وذكر لهُ انهُ ليس في طاقتهِ ترك حبيبتهِ فان الحب يمنعهُ من سلوّها والشرف يطالبهُ بوعدهِ لها والدين يفرض عليهِ ان يفي باقسامهِ امامها. وبعد جدالٍ عنيف لم يلّين قلب الوالد ولم يحوّل عزم الولد نهض اللورد مغضَباً وقال لابنهِ لا ازيدك على الوهدة التي ستسقط عليك فيها نار لعنتي وتحرق جسدك فاذهب واتبع طرقك واياك ان تنتسب اليَّ فيما بعد فان اللرد هربرت ملبروك لم يُرزَق بنين . ورأى هنري تصميم والدهِ فخرج من البيت فاقد الهدى وسار وهو لا يعلم الى اين يتوجه

ولما كان اليوم الثاني شاع في المدينة خبر فقد ابن اللرد ملبروك وتناقلت الجرائد الخبر واهتمت الشرط في البحث عنهُ فلم تقف لهُ على اثر وكان جلّ ما عرفهُ رجال الشحنة ان الفتى بعد خروجهِ من بيت ابيهِ لم يسر طويلاً حتى هجم عليهِ ثلاثة رجال ملثمين فاوثقوهُ وسدوا فمهُ ثم حملوهُ الى عربةٍ وساروا بهِ الى حيث لا يعلم احد . ولما مضت بضعة ايام ولم يفلح

رجال الشرط في بحثهم ورد على اللرد ملبروك كتابٌ من احدى شركات الشحنة السرية يضمنون لهُ فيهِ ردّ الولد المفقود اذا تعهد اللرد بمكافأة الشركة على بحثها مع ادآء النفقات التي تبذلها في هذا السبيل . فاجاب اللرد انني قبل ان يفقد الولد طردتهُ من بيتي لاسباب داخلية وحذفت اسمهُ من بين اسمآء أُسرتي فلا يهمني بعد ذلك وُجد او فُقد

ولما علمت الشركة والشُرَط ان ليس من يهتمّ بامر الفتى المفقود اهملوا البحث عنهُ ثم سكتت الجرائد عن ذكرهِ وهكذا اصبح الامر نسياً منسياً ولم يكن في كل انكلترا من يجيل فكرهُ في هنري او يسأل عنهُ . غير انهُ كان في احدى زوايا لندن بيتٌ صغير فيهِ فتاةٌ هي هنريت ما بلغها فقد حبيبها حتى طارت نفسها شعاعاً فلم تذق طعاماً ولا رقاداً بل كانت تترقب الجرائد كل يوم لتعلم ما انتهى اليهِ امرهُ . ولما انقطعت الاخبار وقعت في يأسٍ شديد فهُزل جسمها وفارقتها نضارتها وعلم والدها بامرها فتفتت قلبهُ جزعاً عليها ولم يدرِ كيف او بماذا يؤسّيها ويسليها

وفي ذات يومٍ نهضت هنريت من رقادها ولما خرج والدها من البيت خرجت في اثرهِ وقصدت شركة الشحنة السرية فطلبت مواجهة المدير ولما مثلت امامهُ قالت أأنت يا سيدي الذي كتبت الى اللرد ملبروك تخبرهُ انك قادرٌ على وجدان ولدهِ المفقود . قال نعم . قالت وهل سعيت في ذلك . قال كلا فان اللرد قد تبرّأ من ولدهِ وارسل يعلمنا انهُ قد حذف اسمهُ من بين اسمآء اسرتهِ واذا كان ذلك فمن يعوّض علينا النفقات والاتعاب التي نبذلها في البحث عنهُ . فوقفت هنريت حيناً ثم قالت وكم

المبلغ الذي تطلبونهُ لهذا البحث . قال لا اعلم بالتحقيق لانني اجهل النفقات التي تلزمنا ولكن على كل حال لا يقل ذلك عن الفي جناي . قالت وهل يجب دفع المبلغ معجّلاً . قال اذا وثقنا بمقدرة الدافع امهلناهُ ريثما نجد الضالة . فنظرت هنريت اليهِ وقد كُسي وجهها احمراراً فنفذت سهام عينيها الى قلبهِ وقالت هل تثق بي فانا اؤدّي لك المبلغ في وقتهِ . ورأى المدير في عينيها دلائل الصدق فقال قد قبلت ثم احضر ورقاً فكتب عليها تعهداً بالدفع بعد ان تعهد من نفسهِ انهُ سيشرع من ليلتهِ في السعي وانصرفت وفي صدرها عاملان من الرجآء واليأس وفي نفسها عزائم شتى . ولما كان اليوم الثاني نهضت من رقادها فطلبت الى والدها ان يأذن لها في السياحة في نواحي ارلندا تبديلاً للهوآء ورأى والدها ان صحتها كانت منحطةً كثيراً في تلك الايام فاذن لها في السفر وزودها بما تحتاج اليهِ من المال فودعتهُ وسارت . وكان جيمس غير غافل عن حركات ابنتهِ فاطلق لها ان تفعل ما تشآء وهو متتبعٌ لها بعينٍ لا تنام

اما هنريت فودعت اباها على نية السياحة وما غابت عن بصرهِ حتى غيرت خطتها فتوجهت الى احد ملاعب التمثيل وسألت قيّمهُ ان يسمح لها بالانضمام الى جوقهِ فاستقبلها القيّم بالبشاشة وعيّن لها ادواراً تغنيها وقت التمثيل . ولما قامت هنريت اول ليلةٍ واستقبلت الجمهور تمثلت لها صعوبة الموقف ثم خطر لها حبيبها مفقوداً متروكاً فاستسهلت كل صعب في سبيل ردّهِ ثم اندفعت تغني وكان نشيدها محزناً وكأن نوراً سماويًا اضآء في وجهها فزاد جمالها اضعافاً وما ابتدأت في الغنآء حتى سحرت الحضور فاستعادوها

مراراً ورأوا في جمالها وبديع حركاتها ما زادهم فتنةً على فتنة فانهالت عليها كتب الفتيان وهداياهم ومبالغ الاموال فكانت تذخر ما يصل الى يدها وتصونهُ صون عرضها ودامت على تلك الحالة مدة سنتين . وكان لها صديقة في ارلندا فكانت من حين الى آخر ترسل اليها رسائل باسم والدها وتكلفها ان ترسلها اليهِ على يد البريد لتوهمهُ انها لا تزال في سياحتها في ارلندا وتخبرهُ انها هناك في اتم السعادة والصفآء . اما الوالد فكما ذكرنا قبلاً كان عالماً بمقرّ ابنتهِ مطلعاً على دقائق اعمالها بل كان يحضر من حين الى آخر محل التشخيص حيث هي ويعرفها من ورآء تسترها العظيم ويذرف دموع الشفقة والمحبة . ولم يكن جيمس مراقباً لاعمال ابنتهِ فقط بل كان يتتبع حركات مدير شركة الشحنة السرية ايضاً لانهُ شعر منهُ باشيآء تدعو الى الريب في امرهِ . ولما اتمت هنريت السنتين رأت ان ما توفر لديها من المال والجواهر يفوق القيمة المطلوبة فبعثت برسالة الى مدير شركة الشحنة تسألهُ عما كان من امر المفقود وعلم ذلك انها قد تمكنت من جمع المال المطلوب فاجابها انهُ يؤمل ارجاعهُ في مدة خمسة ايام فطارت نفس هنريت سروراً واستبعدت من الجوق ورجعت الى بيت والدها

في غد ذلك اليوم خرج والد هنريت فتنكّر بزيّ الفعلة وجعل يجول من موضع الى آخر كأنهُ يبحث عن شغلٍ يرتزق منهُ حتى بلغ منزلاً منفرداً عن المدينة فجلس بجانبهِ على الطريق . وبينما هو جالسٌ اذ مرَّ بهِ رجلٌ عرفهُ لاول وهلة انهُ من رجال الشحنة السرية ولما وصل اليهِ قال لهُ ماذا تفعل هنا ايها الرجل . قال لم يتيسر لي شغلٌ اليوم وقد انتهى بي السعي

الى هنا فجلست استريح . قال هل لك ان تدخل في خدمتي فان في هذا البيت فتىً قد فقد عقلهُ واصبح في اشد حالات الجنون ولم يشأ اهلهُ ان يرسلوهُ الى مستشفى المجانين فعهدوا بهِ اليَّ وهو في هذه الايام في حالة الهياج الشديد وانا في احتياج الى رجلٍ قادر يتخذ وظيفة بواب ويحافظ على هذا الفتى فهل لك في ذلك . فما صدّق جيمس ان سمع هذا الكلام غير انهُ تردد هنيهةً ليخفي سرورهُ ثم قبل وتم الاتفاق بينهما فاستلم جيمس وظيفتهُ واوصاهُ صاحب البيت ان يحتفظ بالباب ويمنع كل من يطلب الدخول اليهِ وحذَّرهُ جدًّا من فتح باب غرفة المسجون . غير انهُ ما انصرف الرجل حتى بادر جيمس الى باب الغرفة ففتحهُ ورأى هنري المسكين وقد ذبل لونهُ وهزُل جسمهُ وطال شعرهُ فلم يتمالك ان تساقطت عبراتهُ ورأى ان هنري لا يزال بتمام عقلهِ وادراكهِ

وظهر بعد ذلك من ابحاث جيمس ان الذين اختطفوا هنري هم نفس رجال الشحنة المذكورة وكانوا قد رأوا ان اشغالهم في وقوف وصادفوا ابن اللرد مابروك في موضع منفرد وذلك في اليوم الذي طردهُ فيهِ والدهُ فاختطفوهُ واخفوهُ في البيت المذكور بغاية التحفظ وجعلوا في خدمتهِ عجوزاً خرساء فكانت تقدم لهُ المأكل والمشرب ولا يستطيع ان يستفيد منها شيئاً عن حالتهِ . وكان في ظن رجال الشحنة ان والد هنري لا بد ان يرجع اليهم بعد نفاد حيلة الشرطة فيتقاضونهُ مبلغاً كبيراً من المال ويردّون اليهِ ولدهُ فساءَ فألهم حين اخبرهم اللرد انهُ قد نبذ ابنهُ ولم يبقَ من يسأل عنهُ وبينما هم يفكرون في كيف يردّون الفتى اذ ظهرت هنريت فتجددت

آمالهم وكان من امرهم وامرها ما ذكرناهُ

وبعد ما وردت رسالة هنريت على مدير الشركة ووعدها انهُ سيجد هنري في مدة خمسة ايام ارسل احد رجالهِ لاحضار هنري كانهُ قد اهتدى الى محل وجودهِ . ولما وصل الرجل الى المحلّ كلّم البواب وهو جيمس ففتح لهُ ودخل الى غرفة هنري وما كاد يطأ الباب حتى وثب اليهِ رجلان من الشرطة كانا قد حضرا بطلب جيمس فاوثقاهُ واخفياهُ . ولما استبطأ المدير رجوع رجلهِ قام بنفسهِ الى المحل المذكور وسأل جيمس هل اتى احدٌ من قبلهِ فقال لا . فدخل المدير فاصابهُ ما اصاب رفيقهُ ولما القي القبض على الاثنين ذهب جيمس بهما وبهنريه فسلّم الرجلين الى الحكومة وعاد بهنري الى بيتهِ . واستقصت الحكومة اخبار هذه الشركة فقبضت على افرادها وعاقبتهم بما اقتضت جريمتهم

وبعد ما اقام هنري في بيت حميهِ اياماً نفض فيها عن نفسهِ غبار ذلك السجن عُقد لهُ على هنريت وكان فيما جمعتهُ هنريت من المال ما يكفيهما لسد حاجات المعاش فاكترى لهُ منزلاً بظاهر البلد وعاش معها بتمام السعادة والسرور ولم يكن ما ينغصهُ الا مجرَّد تفكرهِ في فقدانهِ حقوقهُ من بيت ابيهِ

وبعد ان اتت عليهما مدةٌ من الزمان رزقهما الله ولداً وكان آيةً في الجمال فاتخذا لهُ حاضنةً ترضعهُ وتربيهِ . وان الحاضنة خرجت يوماً بالطفل تنزههُ في احدى الحدائق العمومية فبينا هي تتمشى بهِ اذ مرّ بها شيخٌ كبير من اشراف البلدة فلما رأى الطفل على يدها أُعجب بجمالهِ فوقف

يتأمل فيهِ فلم يلبث الطفل ان ابتسم اليهِ ابتسامةً لطيفة. فزاد اعجابهُ بهِ وانعطافهُ اليهِ وسأل الحاضنة ابن من هذا الولد . فقالت ابن رجل يسمى هنري هو فيما علمت من ابنآء الاشراف ولكني لم اعلم اسم أُسرتهِ . قال وهل تعرفين اسم امرأتهِ . قالت نعم اسمها هنريت وهي ابنة رجل من كبار الشرطة يقال لهُ جيمس . وكان الشيخ هو اللرد ملبروك نفسهُ فلم يشك ان ابا الولد هو ابنهُ فقال لها واين يقيم سيّدكِ . فقالت بموضع كذا من شارع كذا . فاكبّ على الطفل وقبلهُ ثم مضى في سبيلهِ

ولم يمضِ على ذلك شهران من الزمن حتى مرض اللرد وثقلت علتهُ ولما احسّ بقرب الاجل بعث الى ولدهِ هنري في المكان الذي اشارت لهُ اليهِ الحاضنة فاستدعاهُ اليهِ ولما حضر ورأى والدهُ في تلك الحال وقع على عنقهِ وبكى كلاهما وبعد ان جلس حيناً واستخبرهُ اللرد عن زوجتهِ وولدهِ قال لهُ اني ارى اجلي قد صار قريباً وليس لي الآن من وارث ولكن الله لم يشأ ان يحرمني وارثاً من صلبي فان اكن قد حرمتك مالي ونسبي ولا مرجع لي في ذلك فاني احيل هذا الارث الى ولدك فهو يتقلد اسمي ويستولي على ما سأتركهُ من المال والعقار وتكون انت وصياً عليهِ الى ان يدرك سن الرشد ثم كتب وصيتهُ بما ذكر وسلمها الى هنري

وبعد ذلك بايامٍ قلائل توفي اللرد وبعد وفاتهِ انتقل هنري بزوجتهِ وولدهِ الى قصر ملبروك فعاشوا جميعاً في الرخآء والنعيم الى ما شآء الله